نقولا زيادة
عملاق على مساحة قرن

د. عبد الرؤوف سنّو
الجامعة اللبنانية

نقولا زيادة، الراحل الخالد في قلوب أصدقائه وعشاق قلمه ومحبي فكره، وما دوّنه في التاريخ وللتاريخ، هو إنسان على مساحة قرن من الزمن، عاش ميلاده وشاهد أفوله، فكان خير رحالة ومراقب في عصر طويل امتلأ بالأحداث. فسجّل ودوّن ورحل تاركاً خلفه مدرسة في التاريخ والعلوم الاجتماعية، وفوقها جبلاً من المؤلفات. لكنه ترك وراءه أيضا جيلاً من التلامذة والأصدقاء والمحبين.

بعد عودتي من ألمانيا في مطلع الثمانينيات من القرن المنصرم، شاءت الظروف أن تنتقل صلتي بهذا الرجل من الكتب إلى المعرفة الشخصية. منذ ذلك التاريخ وحتى رحيله، لم تتغير قناعتي يوماً بأني أصادق عملاق: جبل شامخ كساه بياض بوقار، ونظرات حادة ثاقبة تدل على رجل اختزن الكثير في عقله وامتلك تجربة طويلة مع العلم والحياة، ولديه فيض هائل من المعرفة. وما أن يدنو المرء منه أكثر، حتى يشعر أنه في داخل دائرة للموسوعات يقلب صفحاتها وموضوعاتها ويغرف منها طلباً للمزيد. وعندما يظن المرء أنه يتحدث إلى مؤرخ، يجد نفسه يجالس عالم اجتماع وسياسة وجغرافيا وفلسفة وأدب وثقافة واسعة. وإذا ما ركبت "سفينته" العلمية، فإنه يبحر بك من دون شك في عالم الشرق القديم، وفي العصور الوسطى، وعالم البحر المتوسط لبروديل، وينقلك إلى معقل السنوسية والتيجانية والرحمانية والتصدي للاستعمار في شمال إفريقيا، وإلى الخليج العربي وتجارته وطريق الهند ومصالح بريطانيا، وإلى مصر أحمد عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول، وإلى بلاد الشام، معقل القومية العربية ومهد الثورة العربية الكبرى. أما لبنان، حيث أرسى الراحل الكبير "سفينته" حوالى نصف قرن، فقد خصه نقولا زيادة بمؤلفات تناولت أبعاد تاريخه ومشكلاته.

وقد يتساءل البعض عن سرّ حياته المديدة، وكيف أمكن لرجل أن يكون على مساحة قرن بكامله؟ أقول بكل بساطة، إنه حب الحياة وإرادة العيش، وربما انسجاماً مع قول الأمام علي بن أبي طالب: "إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا...". لقد قرر نقولا زيادة أن يعيش القرن كله وفعل، ليس كمسجل لأحداثه فحسب، بل كإنسان عاش حياته الاجتماعية والمهنية بكل تفاصيلها ودقائقها.

عندما بدأ الوهن يُضعف قامته الجبارة ويعيقه عن الخروج من المنزل، أدرك نقولا زيادة أن عليه، كي يعيش حياته ويتلذذ بها، أن يبقى في وسط دائرة أصدقائه، الأوكسجين الذي كان يتنفسه. من هنا، طرأ تعديل على حياته الاجتماعية، وهي استقباله الأصدقاء في شقته بدلاً من الذهاب إليهم. كل أسبوع، كانت شلة من الأصدقاء تقضي بضع ساعات برفقته تستمتع إليه وهو يروي حكايته مع القرن الطويل. فيخطف الأضواء من أي زائر، مهما على شأنه العملي أو المهني، مستعيداً الماضي كتجربة وعبرة، متحدثاً في مقالته الجديدة، أو عن مقابلته التلفزيونية الأخيرة، أو ما كان يترجمه عن الإنكليزية في أيامه الأخيرة. وإذا ما شاء شيخ المؤرخين، وهذا ما كان يحدث في معظم الأحيان، يقوم بكشف النقاب عن أسرار لا تعرفها كتب التاريخ ولا كاتبيه. فيشد الحاضرين إليه بكل جدارة عقلاً وجسداً.

يوم أطل على المشاركين في مؤتمر الحرب العالمية الأولى، الذي انعقد في "المركز الألماني للأبحاث الشرقية" عام 2001، تحدث عن ذكرياته وتجربته خلال الحرب الكونية. فشدّ بذاكرته الفذة الحاضرين بكثرة التفاصيل الدقيقة التي رواها كشاهد عيان على أول حرب بين الأمم على مستوى العالم، وكيف انعكست على بلاده وعليه كطفل مراقب صغير. ولا أزال أذكر يوم عاد مزهواً من دمشق إثر تقليده وساماً من قبل الرئيس السوري بشار الأسد، فقال لنا: "كانت المقابلة المحددة هي نصف ساعة، ولكن الرئيس الأسد استبقاني لمدة ساعة". أراد شيخ المؤرخين أن يقول لنا، أن الرئيس السوري يقدر العلم والمؤرخين. فوضع صورته التي جمعته به في ركن ظاهر من غرفة الجلوس بكل فخر. لقد وضع نقولا زيادة عشرات المؤلفات والمقالات عن بلاد الشام، وأهمها كتاب "شاميات".

أحب نقولا زيادة كثيراً أن تتودد إليه السيدات وتحطن به. إن شعوره بأنه محط إعجاب السيدات الصديقات، جعله يزهو بنفسه بأنه منافس بارع لأكثر الشباب منا جاذبية وعنفواناً. عندما كان يقبّل هذه الصديقة أو تلك، أو أن توجه إليه إحداهن كلمات غزل أو إطراء، كنت أعمد الى التدقيق في تفاصيل ابتسامة السرور والفخر التي ترتسم على وجهه وتغوص في أعماقه.

إن إثبات الذات والقدرة في أي مجال، هما أكثر ما يتمسك بهما رجل مسنّ. ولكي يؤكد نقولا زيادة لزائريه أنه لا يزال في المقام الأول علمياً واجتماعياً، كان يوجه، بمقام الصديق والأب، النقد إلى فلان حول عمل أكاديمي أو تصرف شخصي قام به. ولا أزال أذكر نقده لي على مقال صحفي نشرته، حذف التحرير أجزاء منه لضيق المجال. فقال لي: "كتبت مقالاً مفككاً، ما عهدت بك هذا". وحتى في عمره المديد، كان لنا معلماً ونبعاً نروي منه ظمأنا.

آخر لقاء جمعني به، كان في أحد أيام الآحاد، قبل قليل على العدوان الإسرائيلي الأخير على لبنان في تموز 2006. يومها كنت عائداً مع زوجتي إلى بيروت من طرابلس بصحبة الصديق العميد الدكتور أحمد حطيط وعقيلته الدكتورة إلهام. زرناه في شقته، فوجدناه يجلس على كرسيه المعتاد واضعاً غطاءً على رجليه. كان منهك القوة وهزيلاً، من دون أن يفقد أهم شيء لدى الإنسان، وهو ذاكرته. أدركت بحسرة وغصّة، أننا على وشك أن نخسر عملاق القرن العشرين، شيخ المؤرخين. لكني، تمالكت نفسي بالقول في أعماقي: كيف نخسر نقولا زيادة، وقد ترك لنا 45 مؤلفاً باللغتين العربية والإنكليزية، وترجم 10 كتب، فضلاً عن أكثر من مئة مقال ودراسة. فهل رحل نقولا زيادة؟ لقد رحل جسداً، لأنها سنّة الحياة، هذه الحياة التي أحبها إلى درجة التمسك بها من ألفها إلى يائها، لكنه باق فينا، عالماً ومؤرخاً وصديقاً لن ننساه.